الفصل الأول

بداية الخلق

وينقسم إلى مباحث:

- مشهد البداية.
- آيات الكون تشهد بجدية الرسالة.
- الإعلام بخلق آدم عليه السلام.
- خلق آدم من طين.
- سجود الملائكة لآدم.
- من هو إبليس.
- الشيطان يرفض السجود.
- اسكن أنت وزوجك الجنة.
- مدخل الشيطان للنفس.
- توبة الله على آدم عليه السلام.
- لماذا غفر الله لآدم.
- لكل إنسان شيطان.

● **مشـهد البـداية:**

فى مشهد علوى مهيب يكشف الحق تبارك وتعالى عن إرادته فى خلق كائن أودع فيه من الأسرار والعطاءات والمكرمات ما يؤهله لأن يكون خليفته فى الأرض يعمرها على منهجه ويحقق له سبحانه العبادة على نهج جديد لم يسبقه إليه أحد من الكائنات، ولا شك أن إعلام الحق تبارك وتعالى للملائكة عن إيجاد هذا المخلوق بهذه الصورة يوضح المكانة الفريدة التى أرادها الله تعالى له. كما تلقى الضوء عن المهمة الضخمة التى أناطها وأوكلها الحق تعالى به. آلا وهى العبادة بصفة الحب والاختيار مع ما يكتنفها من الجهاد الشاق الطويل والكفاح المضنى العسير. سواء أكان ذلك الجهاد ضد شهوات النفس، أو صوارف الهوى، أو ضد ذلك العدو اللدود. الذى يقف بالمرصاد لكل محاولة جادة نحوها أو إليها. وعلى قدر العقبات التى تكتنف الطريق، وعلى قدر الجهد الذى يبذل والتضحيات التى تتم تكون القيمة ويكمن المعنى.

فلا شك أن التعظيم والتمجيد والتكبير والتسبيح تتوقف قيمته على أشياء متعددة؛ أهمها قيمة من يقوم به. فإذا قام به صاحب قيمة أو مرتبة أو عقل فإنه يدل على عظمة وجلال المراد به، وإذا قام به ضعيف العقل مغفول الجانب أو محطوط القدر. فإنه لا يؤدى غرضه ولا يُعبأ به. مما يوضح قيمة المخلوق الذى أناط الله تعالى به تسبيحه وتقديسه وتعظيمه وإجلاله.. لأنه ولله المثل الأعلى: لو مدح إنسان من عامة الناس زعيما من الزعماء أو رئيسا من الرؤساء فإنه فى العادة لا يعتد به ولا يقيم المجتمع لذلك وزنا. ولكن إذا مدحه ند أو قرين من الزعماء أو الرؤساء. فإن ذلك يعد مزية وشرفا يتفاخر به الناس وتردده وسائل الإعلام.. ولكن هل هناك مخلوق يستحق أن يعظم الله تعالى فيقبل منه أو أن يسبحه فيقبل منه أو أن يمجده فيقبل منه؟ والكل مخلوقاته وعبيده! بالطبع لا. ولكنها رحمة الله وفضله وكرمه وقدرته أن يخلق ويوجد من يعبده ويعظمه ويمجده فيقبل منه سبحانه وتعالى ويجعل لعبادته وزنا وهو مخلوق بسيط من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى.

وعلى قدر العقبات والتضحيات والمنحنيات التى تواجه من يقوم بتلك المهمة. تكون القيمة ويتضح المعنى وتعظم الدرجة. وإذا أراد الله شيئا سبب له أسبابه ولا يظلم ربك أحدا، ولهذا نجد أن الله تعالى يضع فى سبيل الإنسان الإبتلاءات والعقبات الجسام وعلى رأسها الشيطان الذى أعلن العداوة وأظهر التحدى والذى يجرى منه مجرى الدم ويستخدم كل الحيل و يطرق كل السبل لإيقاعه فى الشرك ومعصية رب العالمين:

إنى ابتليت بأربع ما سلطوا ... إلا لشدة شقوتى وعنائى
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائى
وأجد الهوى تدعو إليه خواطرى ... فى ظلمة الشهوات والآراء

ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧] وذلك ليقتحم المسلم كل تلك المعاطب والعقبات وصولا إلى مرضات رب العالمين. فيكون عندئذ مستحقا لحمل أمانة العبودية لأنه حينئذ لم يتغلب على شهواته فحسب ولا غرائزه ولذة نفسه فحسب. وإنما أيضا يكون قد جاهد الشيطان الرجيم جهادا كبيرا، مضحيا بكل ذى خطر من متاع الدنيا ومصلحة النفس. ومتحملا لكل أنواع الأذى ولكل صنوف العذاب اعترافا منه بعظمة رب العالمين. واستحقاقه العبادة والتعظيم والإجلال مما يعمق معنى وجوده ويحقق قيمة مهمته.

ولا شك أن نظرة الإسلام لمهمة الإنسان فى الوجود حَريَّة بالبحث وجديرة بالإهتمام والإحترام. فهى ولا ريب تجعل للوجود العام معنى ولوجود الإنسان قيمة ورسالة. فهو لم يخلق عبثا ولن يترك سدى. كما يظن أصحاب النظريات العبثية للوجود والذين يحصرون مهمة الإنسان فى الإستمتاع بمباهج الحياة وفى الطعام والشراب والقوة والسيطرة والثراء، ولا يُكلف أحدهم نفسه بمجرد التساؤل عن غاية الخلق أو مصير الوجود أو عما وراء تلك الأحداث والشهوات لأنهم جاءوا لا يعلمون من أين؟ ولا لماذا؟ ولا إلى أين؟ وكأنهم من صنوف الحيوانات وأنواع العجماوات ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢].

● **آيات الكون تشهد بجدية الرسالة:**

بعد أن أخبر الله تعالى أنه خلق جميع هذا الكون أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون وسخره له. ومن يفتح كتاب الكون الضخم على مصراعيه ويستعرض مواكب الكائنات فيه يجد أنه مفعم بالآيات الدالة على الحكمة العليا من ورائه وناطق ومترع بالقوانين والموافقات العجيبة التى لا يستطيع العقل أن يحصيها أو يُلم بها ولكنه يقف أمام ما أحاط منها منحنيا مندهشا بل وساجدا لبارئها العظيم، ومستدلا على أن هناك قوة عظمى أوجدت. ومهمة سامية قصدت. ولنقلب فى بعض صفحات ذلك الكتاب المديد لنطالع فيها دلائل القدرة والإبداع والقصد والتدبير التى تستحيل معها الفلته والمصادفة وينعدم فيها الخلل والفطور – التفاوت والقصور – فهناك السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والشجر والدواب والبحار والأنهار والنباتات والمزروعات والهواء والنار وما فى طيات كل ذلك من ومضات وايحاءات شتى تدل على الحكمة العليا والعلم المبين وراء ذلك الكون العظيم وآياته التى لا تتناهى.

فالليل والنهار يتعاقبان بترتيب واتساق وتزامن ينعدم فيه القصور ويستحيل معه التقديم أو التأخير رغم أنهما مترتبان على دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس. بسرعة معينة لو ازدادت لقل طول الليل والنهار ولو قلت لطال الليل والنهار ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٢] وكذلك موضع الأرض من الشمس وثبات ذلك الموضع دون حوامل أو ضوابط مرئية ورغم الأوزان الهائلة لكل من الشمس والأرض السابحتان مع بقية الأجرام فى فضاء لا نهائى. فوزن الشمس يقدره العلماء بألفى مليون مليون مليون طن ووزن الأرض بستة آلاف وستمائة مليون مليون طن. فرغم تلك الأوزان الهائلة لا تقترب الشمس من الأرض ولا تبتعد عنها لأنها لو اقتربت منها لارتفعت درجة حرارتها بدرجة تستحيل معها الحياة ولاحترقت كل الموجودات على سطحها.. ولو ابتعدت لانخفضت درجة الحرارة على سطحها فأصبحت زمهريرا تستحيل معه

الحياة ولتجمدت كل المياه والموجودات.. وكذلك فإن كل موقد يستنفد وقوده ويحتاج إلى التزويد والمزيد من الزيت أو الوقود ولكن الشمس مع التهابها واشتعالها لكل هذه الملايين من السنين فلم تحتاج إلى ذلك.

ويضرب الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه لذلك مثلا فيقول: لو أن إنسانا صنع مصباحا كهربائيا فإنه يقيم لذلك مصنعا من المصانع الراقية المليئة بالخبراء والمهندسين والعمال. فهذا يصنع زجاج اللمبة وهذا يصنع كعب اللمبة وهذا يصنع التنجستين (المادة المتوهجة) باللمبة وهذا يفرغ اللمبة من الأكسجين حتى لا تحترق. ورغم ذلك تحترق اللمبة بعد شهور وتحتاج إلى بديل. وتعطب شبكات الكهرباء وتحتاج إلى متابعة وصيانة. أما الشمس التى تنير الكون كله منذ ملايين السنين فلم تتعطل فى يوم وتحتاج إلى بديل. ولم تعطب وتحتاج إلى صيانة. لأن الكهرباء وشبكاتها ومصابيحها تجرى بقدرة البشر أما الشمس فتجرى بقدرة رب العالمين.

وإذا أقام الإنسان شبكات للمواصلات فإنه يُعبِّد لها الطرق وينظم لها قوانين المرور، ورغم ذلك تحدث المخالفات وتقع المصادمات فتصطدم السيارات أو القطارات وتمتلىء المستشفيات بالجرحى أو القتلى. رغم كل الاحتياطات والقوانين. أما السماء المليئة بالشموس المتحركة. والأقمار السائرة. فلم نسمع فى يوم عن اصطدام شمس بشمس. أو كوكب بكوكب. لماذا؟ لأن السيارات والقطارات والطائرات تجرى بقدرة البشر. أما الشمس فتجرى بقدرة رب العالمين ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس: ٣٨ – ٤٠].

وكذلك دورة الماء الذى تبخره الشمس من المحيطات والبحار فيتصاعد إلى طبقات الجو العليا والتى تشاء إرادة الحكيم العليم أن تكون باردة ومنخفضة فى درجة حرارتها مما يؤدى إلى تكاثف ذلك البخار وعودته إلى صورته السائلة فى شكل قطرات من الماء يصعب على الهواء حملها فتسقط فى صورة أمطار لتجرى منه الأنهار، وتنمو به الأشجار وتنضج به الثمار فى تنوع عجيب يتفق مع احتياجات الإنسان فهذه الحبوب – القمح والذرة والشعير – لصناعة الخبز. وهذه البقول التى تحتوى على البروتينات. وهذه الخضروات المحتوية على الفيتامينات. وهذه الفواكه

المحتوية على المعادن. وهذا القصب والبنجر لإنتاج السكر. وهذه الألياف – القطن والكتان – لصناعة الملابس وبعض البذور لإنتاج الزيوت. والزهور للروائح. والأخشاب للأثاث والسفن وكذلك الأعلاف والنباتات لغذاء الماشية التى بدورها تدر الألبان اللازمة لانتاج الزبد والأجبان. والمنتجة كذلك للحوم.

كما توفر قدرة العليم الحكيم مصادر الطاقة من فحم وبترول وذلك بانطمار الغابات تحت الرمال منذ آلاف السنين. كما ترتب المعادن اللازمة للعمران بمختلف أنواعها.

ثم نجد توافقًا آخر.. ففى داخل جسم الإنسان أعضاء. كل عضو مهيأ لهضم نوع من هذه الأنواع والذى يتم توزيعه بعد ذلك على الخلايا المحتاجة إليه فى أنحاء الجسم.

ثم يخلق رب العالمين الزوجين الذكر والأنثى اللازمين لاستمرار النوع البشرى. وهما جنس واحد انقسم إلى نوعين. وهما: الذكر والأنثى وبينهما توافق يستحيل أن يحدث بغير علم وحكمه وقدرة رب العالمين. فالمرأة عضوها التناسلى داخلى ومطمور. أما الرجل فعضوه التناسلى بارز. وكأن هذا مهيأ لذاك. ثم ينتج رحم المرأة البويضة. بينما ينتج الذكر الحيوان المنوى. الذى يخصب تلك البويضة ويندمج بها. فيتحولان إلى علقة تتعلق بجدار الرحم. ثم إلى مضغة. فعظام. ثم تكسى العظام لحما. ثم تنفخ فيه الروح وينشأ خلقا آخر. فإذا به بشراً سويا.. وذلك أيضا فى تركيب عجيب. وفى طيات ذلك أيضا عجائب أخرى لا حصر لها. إذ اكتشف علماء الهندسة الوراثية. أن كل خلية من خلايا الجسم والتى لا ترى إلا بالمجاهر التى تكبرها ملايين المرات. تتكون من ستة وأربعين كرموسوما. ما عدا خليتين! خلية فى المرأة وهى البويضة. والتى تتكون من نصف هذا العدد أى ثلاثة وعشرين. وخلية فى الرجل وهى الحيوان المنوى. والذى يتكون بدوره من نفس هذا العدد أى ثلاثة وعشرين كرموسوما. فإذا ما اندمج الحيوان المنوى مع البويضة مخصبا لها عقب المباشرة. فإنهما معا يُكوِّنا خلية كاملة تتكون من ستة وأربعين كرموسوما. وهو ما يؤكد القصد والتدبير والتوفيق والترتيب الذى يستحيل فيه العبث ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وغير ذلك الكثير في صفحات الكون وذوات الأنفس ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠ - ١١].

● **الإعلام بخلق آدم عليه السلام:**

ولنعش ايحاءات اللحظات الأولى من قصة البشرية. ونستلهم ذلك السر الإلهى العظيم الذى أودعه الله تعالى هذا الكائن البشرى وهو يسلمه مقاليد الخلافة فقد وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة فإلى جانب سر المعرفة. وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق. فازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

قال ابن كثير رحمة الله عليه: أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا. كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٩٥] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته. فقالت الملائكة سائلين على وجه الإستكشاف والإستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الإعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم. كما قد يتوهمه بعض الجهلة « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك

الدماء». قال قتادة: علموا أن ذلك كائن بما رأوا مما كان قبل آدم عليه السلام من الجن والبن. وقال ابن عباس وابن عمر وناس من الصحابة رضوان الله عليهم: كانت الجن قبل آدم بألفى عام فأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء. فبعث الله إليهم جنداً كثيفا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور. وعن الحسن ألهموا ذلك. وقيل اطلعوا عليه فى اللوح المحفوظ. وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة الغالبة»[1].

فهم علموا أنهم سيخلقون من الأرض ولهذا ظنوا فيهم الفساد والطغيان فهى مادة مظلمة وقاتمة ومن كان شأنه أن يكون من الأرض فقد عرف بالفساد والطغيان ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٢].

أضف إلى ذلك أن الجان وعلى رأسهم إبليس كان يعمر الأرض قبل آدم ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ [الحجر: ٢٦ – ٢٧] أى من قبل آدم. فأفسدت فى الأرض وملأت طباق الأرض ظلما ولهذا قالت الملائكة: أيكون هذا الخليفة كمن سبقه من هؤلاء الخلائق؟ فالسؤال هنا عن الحكمة. لا سؤال اعتراض فما كان للملائكة أن تعترض.

ويقول صاحب الظلال رحمة الله عليه مؤكدا ذلك: وسؤال الملائكة يوحى بأنه كان لديهم من شواهد الحال أو من تجارب سابقة فى الأرض أو من إلهام البصيرة ما يكشف عن شىء فى فطرة هذا المخلوق أو من مقتضيات حياته على الأرض. وما يجعلهم يعرفون أنه سيفسد وأنه سيسفك الدماء. وقد خفيت عليهم حكمة الله العليا فى بناء هذه الأرض وعمارتها وفى تنمية الحياة وتنوعيها. وفى تحقيق إرادة الخالق فى تطويرها وترقيتها وتعديلها على خليفة الله فى أرضه. هذا الذى قد يفسد أحيانا وقد يسفك الدماء أحيانا. ليتم من وراء هذا الشر الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو والرقى الدائم. خير الحركة البانية الهادمة. خير المحاولة التى لا تكف. والتطلع الذى لا يقف والتعبير والتطوير فى هذا الملك العريض. ولهذا جاء

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١.

إلى الملائكة القرار من العليم بكل شيء والخبير بمصائر الأمور ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾. وكأنه تعالى يلفتهم إلى أن مهمة هذا المخلوق فى إطار العبادة والتسبيح والتحميد والتمجيد ستسبق مهمتهم فيها. وسيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديون والشهداء والصالحون.

ونحن نتفق مع هذا الرأى ومع رأى من قال من السلف الصالح أن الملائكة ألهموا ذلك. كنوع من التعمية على إبليس اللعين الموجود بينهم حينذاك والذى أراد الحق تبارك وتعالى أن يخرج خبيئة كبره ويفضح حقيقة أمره. كما سيتضح فيما بعد. وقوله تعالى: ﴿ **وأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ قد يدل على هذا المعنى. لأن الملائكة لا يقترحون على الله ولا يقدمون بين يديه ولا يسبقونه بالقول ولا يعترضون على إرادته وإنما هم ﴿ **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾. [الأنبياء: ٢٦ – ٢٨]

ثم بين الحق تبارك وتعالى عطاءه لآدم عليه السلام وشرفه على الملائكة فى العلم، فعلمه أسماء كل دابة وطير وسهل وبحر وحيوان وملائكة وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم سأل الملائكة عنها. فقالوا: لا علم لنا بذلك. وسبحوه تعالى أن يعلم أحد بشيء من علمه إلا بتعليمه. فأمر آدم عليه السلام أن يخبرهم بها فاخبرهم فقال تعالى: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ وقال بعض السلف: «وأعلم ما تبدون» يعني قولهم: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾. أى إبليس حين أسر النفاسة على آدم.

● **خلق آدم عليه السلام من طين:**

ثم أرسل الحق تعالى جبريل عليه السلام كى يأتى بقبضة من طين الأرض. فذهب ليأتى بالتراب. فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنتقص منى قبضة يكون منها نصيب للنار يوم القيامة. فأعاذها. ونزل اسرافيل وميكائيل فاستعاذت الأرض فأعاذوها. فأمر تعالى ملك الموت بذلك فهبط. فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن

تنتقص منى. فقال لها: وأعوذ بالله أن لا أنفذ أمره فيك. وجمع من جنبات الأرض قبضات التراب. فقال الله تعالى له: أنت قابض الأرواح منهم ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوا آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك»(١). وفى حديث آخر عن ملك الموت فأخذ وخلط ولم يأخذ من مكان واحد. وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنوا آدم مختلفين.

وقد جاء القرآن الكريم بخلق الإنسان من تراب أو طين عبر عدد من المراحل في سبع عشرة آية. فمثلا قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٤] وقال فى موضع آخر: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** ﴾ [الروم: ٢٠] وقال فى موضع ثالث: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ** ﴾ [الإنعام: ٢] وقال فى موضع رابع: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ** ﴾ [الصافات: ١١] وقال فى موضع خامس: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** ﴾ [الحجر: ٢٦] وقال فى موضع سادس: ﴿ **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** ﴾ [الرحمن: ١٤] وليس بين هذا تناقض لأن وضع الماء على التراب يجعله طينا ويترك حتى يلتصق بعضه ببعض فيصير لازبا ثم يترك حتى يتعفن فيصير حمأ مسنونا ثم يترك حتى يتخشب ويبس فيصير صلصالا ثم ينفخ فيه الروح.

وإذا كان الإنسان لم يشهد عملية الخلق هذه. فإنه يشهد هدمه ووفاته وكما يقول فضيلة الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه: إن الهدم عكس البناء. أى لو بنى الإنسان منزلا. فإنه يبدأ بالأساس ثم بالطابق الأول ثم الثانى ثم الثالث.. وهكذا.. فإذا أراد أن يهدمه فإنه يبدأ بالثالث ثم الثانى ثم الأول ثم الأساس. أى عكس البناء. وهذا ما يحدث لجسد الإنسان عند الوفاة. فإنه يمر بعكس مراحل الخلق كما وصفها القرآن فآخر ما وضع فى البناء وهى الروح. أول ما يخرج عند الموت والهدم ثم ييبس الجسد ويصبح صلصالا كالفخار أى يتخشب ويتصلب كأنه تمثال ثم يصير حمأ مسنونا وطينا لازبا حين تبدأ خلاياه فى التعفن والتحلل وتأخذ الجثة فى التفسخ

---

(١) الترمذى وقال صحيح.

الكامل وانطماس المعالم ثم تتحول إلى طين. فإذا فقد ماءه بالكامل تحول إلى تراب يرجع إلى الأرض[1]. وهو عكس الخلق.

وعندما حلل العلماء عينة من جسم الإنسان. وجدوها تتكون من نفس العناصر التى يتكون منها التراب. فهى تتكون من ستة عشر عنصرا. تبدأ بالأكسجين وتنتهى بالمنجنيز - فسبحان الخلاق العظيم - حتى قال بعضهم: إذا دخلت أنا وأنت معامل التحليل الكيميائية لنعرض ابن آدم فى وزارة التموين كم يساوى؟ لو جئنا بإنسان يزن ثمانين كيجم وأدخلناه فى معامل التحليل. وسعرنا العناصر التى خلق منها كم يساوى؟! إننا نجد فيه من الكربون ما يصلح لصناعة عشرة أقلام رصاص. ومن الدهن ما يصنع سبع قطع من الصابون. ومن الفوسفور ما يصنع منه مئة عود من الثقاب. ومن الماغنسيوم ما يكفى لتبييض عشة دجاج. ومن الكبريت ما يكفى لتطهير جلد حيوان من الحشرات. ومن الحديد ما يصنع مسمار متوسط!! فكم تساوى هذه العناصر لو سعرت؟ مهما كان ابن آدم عظيما. ملكا أو مملوكا. عبدا أو وزيرا غنيا أم فقيرا؟

الناس من جهة التصوير أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يتفاخرون به فالطين والماء

وقال الآخر:

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يابن التراب ومأكول التراب غدا ... إقعد فإنك؛ مأكول ومشروب[2]

وعلى كل حال فقد أخذ تعالى الطين بيده لئلا يتكبر إبليس عليه. فخلقه بشرا بيده سبحانه فكان جسدا من طين. فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه. وكان أشدهم منه فزعا إبليس. فكان يمر به فيضربه. فيصوت الجسد كما يصوت الفخار. أى يكون له صلصلة. فيقول له: لأمر ما خلقت!. وجعل يدخل من فيه ويخرج من

---

(١) الشعراوى - معجزة القرآن.
(٢) قصص الأنبياء - الشيخ كشك جـ ٤.

دبره ويقول للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف – أى أنه خلق لا يتمالك – لئن سلطت عليه لأهلكنه.

ولنا أن نتأمل ذلك القول الوثنى الصرف الذى يقول فيه اللعين: لا ترهبوا هذا فإن ربكم صمد وهو أجوف.. لأنه يوضح بلاهه وسذاجة تصوره عن رب العالمين الذى خطر بباله السفيه ولو للحظة. أنه تعالى قد يتجسد فى هذا الكائن. فلما اختبره وأدرك كونه أجوفا. أقلع عن هذا التصور الضحل. وقال للملائكة ما قال. وإلا فما الذى حمله على المقارنة فى قوله: إنه أجوف وربكم صمد.. إلا هذا الوهم الذى وقع بخاطره السقيم. وكأنه أراد أن يقول للملائكة: لو كان هذا ربكم فلا أقدر عليه ولكنه ليس بربكم ولهذا أقدر عليه. رغم أن أحدا لم يدعى له ذلك حتى يوضحه أو ينفيه. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً !.

فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح. قال تعالى للملائكة إن أحدكم سيطرد من رحمتى. وهنا بلغ الخوف من الملائكة مبلغه. ثم قال لهم: إذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين. فلما نفخ فيه الروح ودخل الروح فى رأسه عطس. فقالت الملائكة له: قل الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال له ربه: رحمك ربك يا آدم. فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما وصلت إلى جوفه اشتهى الطعام. فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وهو قوله تعالى: ﴿ **خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ﴾(١) [الأنبياء: ٣٧].

وهكذا أصبح آدم إنسانا مكتملا من لحم ودم وعظم وعصب. يتحرك ويدرك ويسمع ويرى بإرادة رب العالمين. وهذا يدل أن عناية الله وقدرته إذا وجهت إلى الشىء الحقير خلعت عليه حلل البهاء والجلال وصيرته عظيما كما توجهت إلى التراب. فصيرته بشرا سويا. وجعلته مظهرا لأسرار قدرته وعلمه وحكمته. حتى أفاض عليه من العلم والمعرفة ما أقرت الملائكة بالعجز عن معرفته أو ادراكه ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾(٢) [السجدة: ٩].

---

(١) ورواه ابن حبان بسند جيد.

(٢) وانظر قصص الأنبياء – للنجار.

ثم قال تعالى: « يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم فانظر ماذا يقولون؟ فجاء فسلم عليهم. فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: يا آدم هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال يارب وما ذريتى؟ قال: اختر يدى يا آدم. قال أختار يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين. فبسط كفه. فإذا من هو كائن من ذريته فى كف الرحمن. فإذا رجال منهم أفواههم النور. وإذا رجل يعجب آدم نوره. قال: يارب من هذا؟ قال ابنك داود. قال يارب فكم جعلت له من العمر؟ قال جعلت له ستين. قال يارب فاتم له من عمرى حتى يكون عمره مائة سنة. ففعل الله ذلك. وأشهد عليه. فلما تقدم عمر آدم بعث الله ملك الموت. فقال آدم: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال له الملك: أو لم تعطها إبنك داود؟ فجحد ذلك. فجحد ذريته ونسى فنسيت ذريته »[1].

وفى رواية ابن أبى حاتم: وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام. فقال آدم: يارب لم فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى. ثم أكمله[2].

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية وقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية. وقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[3]. ولهذا العهد والميثاق أثر حى متصل فى الأرواح. دائما ما يتفجر فيها ويحدوها نحو التطلع والاشتياق لله رب العالمين. حتى يقول القائل:

يا بلادا حُجبت منذ الأزل ... كيف نرجوك ومن أين السبيل
أى قفر دونها أى جبل ... سورها العالى ومن منا الدليل
أسراب أنت أم أنت الأمل ... فى نفوس تتمنى المستحيل

---

(١) الترمذى – قال حسن صحيح.
(٢) رواه مالك فى الموطأ.
(٣) رواه مالك.

أمنـــام يتهـــادى فى القـــلوب ... فـإذا ما اســتيقظت ولـى المنـام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب ... قبـل أن يغـرقن فى بحـر الظـلام
يا بـلاد الفـكر يا مهـد الأُلـىٰ ... عبـدوا الحق وصـلوا للجمـال
مـا طلبنـاك بـركـب أو عـلـى ... متن سـفن أو بخيـل ورحـال
لسـت فى الشرق ولا الغـرب ولا ... فى جنوب الأرض أو نحو الشمال
أنـت فـى الأرواح أنـوار ونـار ... أنـتِ فى صـدرى فـؤاد يختـلج

● **سجود الملائكة لآدم:**

ثم أمر الحق تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام تكريما له وتعظيما لشأنه أن خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه. كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [الحجر: ٢٩]. ليتم تشريف الله لهذا المخلوق أربع تشريفات وهى أن خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها ثم أمر الملائكة بالسجود له.. ليس من قبيل العبادة التى لا تجوز لغير الله تحت أى ظرف من الظروف. ولكن يحتمل معانٍ متعددة وهى: أن يكون سجود للجهة. أى أن الله تعالى أمرهم أن يجعلوه قبلة للسجود له سبحانه. مثل السجود للكعبة أى لجهتها.. ويحتمل أيضا تعظيما لإرادة الله فيه وهو السجود طاعة وامتثالاً لأمر الله.

ونضيف هنا أن الله تعالى أمرهم أن يسجدوا لله تعالى سجدة من أجل آدم. أى بنية الدعاء له بالتوفيق والتيسير والتقوية على مهمته الشاقة فى اعمار الأرض ومحاربة الشيطان. كما يقول القائل: سأصلى لك ركعتين. وذلك بطبيعة الحال ليس بمعنى العبادة ولكن بنية الدعاء. لا سيما وأن الملائكة قد نوهوا سابقا عما يكتنف مهمته من مصاعب وعقبات.

وعلى كل حال كان صدور أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم بسبب صنعه إياه بيديه. أى أن الإنسان كان المظهر التام للقدرة والصنعة الإلهية. وفى داخله روح خاصة نفخها الله فيه. ووضع فيه من الصفات التى تتصف بها ذات البارى جل وعلا. ولكن على نطاق محدود بالنسبة للصفات المطلقة واللا محدودة و التى تفوق كل كمال فهو تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾.

ولكن هل سجد كل الملائكة لآدم؟ لا. وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه مثل الحفظة ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار: ١٠ – ١٢]. والكتبة ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨]. والمدبرات ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ [النازعات: ٥] وهم من ينفذ أقدار الله فى الأرض.. ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء. وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الإنسان ولهذا سأل الله إبليس بقوله: ﴿ **أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ** ﴾ [ص: ٧٥]. أى أنك كنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود.

وقد يقول البعض: إن إبليس لم يشمله أمر السجود لأنه ليس ملكا ولكنه من الجن. ولكن وجوده مع الأعلى منه وهم الملائكة فى تلك اللحظة موجبا للسجود. فما دام الأمر قد صدر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى، ولهذا لم يبرر عدم سجوده بذلك وإنما رد الأمر ولم يلتزم بطاعة ربه. وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه. فلو لم يكن مأمورا. لقال لله تعالى حين سأله ! إنك لم تأمرنى. ولكنه أظهر التكبر ولم ينفى الأمر ففهمنا أنه كان مأمورا. وإن كان من غير الملائكة. لأن الله تعالى أمر الشاهدين لنفخ الروح فى آدم بالسجود وإبليس كان حاضراً فشمله الأمر.

ولقد سجد الملائكة كلهم أجمعون فى التو واللحظة امتثالا وطاعة، لأمر رب العالمين إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. فلما رفعوا من السجود رأوا أن إبليس لم يسجد. فعلموا أنه المقصود بالطرد من رحمة الله الذى أخبرهم ربهم به. فسجدوا مرة ثانية شكراً لله عز وجل. وهما سجدتا الصلاة فى كل ركعة. فنحن نركع مرة واحدة ونسجد سجدتين كما فعل الملائكة. الأولى للأمر. والثانية للشكر.

ولهذا يريد الله أن يظهر لهذا اللعين فضل آدم عليه حينما يأمر آدم عليه السلام بتقبيل الحجر الأسود ورجم الشيطان ضمن مناسك الحج. ليظهر له أنه مطيع لربه. ويطيع دون فلسفة ولا كبرياء. فكان من الممكن أن يقول: كيف أتصارع على تقبيل حجر وهو جماد من الجمادات التى هى أدنى المخلوقات. وأنا الإنسان سيد هذا الكون وكيف أرجم فى ذات اللحظة حجر آخر. ولكنه لا يقول هذا ولا يفكر فى ذاك. لأنه الأمر من الله. وما دام كذلك فلا بد من الطاعة.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا** ﴾ [النبأ: ٤٠] والحقيقة أن الكافر هنا بالتعريف تعنى الشيطان لأنه معلم الناس الكفر ويتمنى يوم القيامة. يوم الحسرة والندامة. أن يكون ترابا من جنس آدم. والذى تكبر عن السجود له بسببه. ثم ينجو من غضب الله وعقابه ولا يكون مخلوقا من النار ويتعرض لبطش الله وغضبه. ثم يتبعه كل الكافرين قائلين أيضا: ياليتنا كنا ترابا ولم نكن شيئا مذكوا. ياليتنا كنا نسيا منسيا.

● **من هو إبليس:**

إختلف العلماء هل كان إبليس من الجن المخلوقين فى الأرض قبل آدم. أم من الملائكة على قولين:

الأول: على أنه من الجن الذين خلقوا من مارج من نار. إما أصل الملائكة من النور. كما ثبت عن رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم »(١). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه. وخانه الطبع عند الحاجة. وذلك أنه كان قد توسم وتشبه بأفعال الملائكة وتعبد وتنسك فلهذا أدخل فى خطابهم. وعصى بالمخالفة ونبه تعالى هنا على أنه من الجن أى أنه خلق من النار كما قال تعالى: ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾. قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن. كما أن آدم عليه السلام أصل البشر(٢).

ويرى الشيخ الشعراوى رحمه الله أن كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود. فلو أن إبليس كان من الملائكة – وهم مقهورون على الطاعة – كان لابد أن يطيع ويسجد. ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار فى أن يطيعوا وأن يعصوا. فذلك الذى مكنه من أن يعص أمر السجود. وفتح له بابها. فهو قد دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن فى الحياة الدنيا وحدها. ولو أراد الله تعالى أن يكون إبليس مقهوراً على الطاعة. ما كان يستطيع أن يعص. ولكنه خلق مختارا. ولهذا سأله تعالى: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ﴾ [الأعراف: ١٢]. وكان

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

كفر إبليس وخلوده فى النار. أنه رد الأمر على الآمر وقال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[1] [الإسراء: ٦١].

والقول الثانى: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة. يقال لهم الجن. خلقوا من نار السموم من بين الملائكة. وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة. وخلقت ا لملائكة من نور غير هذا الحى. وقال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت. وقال ابن عباس أيضا: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة. وكان خازنا على الجنان. وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض. وكان مما سولت له نفسه - من قضاء الله - أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء. فوقع من ذلك فى نفسه كبر لا يعلمه إلا الله. واستخرج الله ذلك الكبر منه حيث أمره بالسجود لآدم. وقال عن قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى من خزان الجنان. كما يقال للرجل: مكى ومدنى وبصرى وكوفى. وقال ابن عباس أيضا: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما. فذلك دعاه إلى الكبر. وكان من حى يسمونه جنا - أى من الملائكة - فعصى فسخط الله عليه. فمسخه شيطانا رجيما. وعن سعيد ابن جبير: كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنة[2].

ورويت آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات والله أعلم بحال كثير منها. فروى: أن إبليس كان اسمه فى السماء الدنيا العابد وفى الثانية الزاهد. وفى الثالثة العارف. وفى الرابعة الولى. وفى الخامسة التقى. وفى السادسة الخازن. وفى السابعة عزرائيل. وفى اللوح المحفوظ إبليس. وهو غافل عن عاقبة أمره. فأمره الله أن يسجد لآدم. فقال: أتفضله علىّ وأنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فقال تعالى: أنا أفعل ما أشاء. فرأى لنفسه شرفا. فولى آدم ظهره أنفة وكبراً. وانتصب قائماً. إلى أن سجدت الملائكة المدة المطلوبة. فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد وهم اعتدلوا من السجود. سجدوا ثانياً شكراً. وهو قائم يُرى معرضًا عنهم. غير عازم

---

(١) وانظر تفسير الشعراوى.

(٢) تفسير ابن كثير.

على الإتباع. ولا نادم على الامتناع فمسخه الله تعالى من الصورة البهية ونكسه كالخنزير. وطرده من الجنة. بل من السماء بل من الأرض. إلى جزائر البحور. فلا يدخل الأرض إلا خفية. ولعنه إلى يوم الدين لأنه صار من الكافرين. وقد كان بهى الصورة. رباعى الأجنحة كثير العلم. كثير العبادة وطاووس الملائكة وأعظمهم هيئة فلم يغن ذلك عنه شيئاً وطرد من رحمة الله[1].

وبعد هذا العرض لكلا القولين يتفجر سؤال خطير ووجيه فى العقول ويتطلب الإجابة الشافية. ألا وهو!.

إذا كان إبليس من الجن فكيف صعد إلى هذا المرتقى ليكون فى وسط الملائكة بهذه المكانة العالية السامقة؟. وإذا كان من الملائكة فكيف تتخلف فيه صفاتهم من العبودية المحضة والطاعة المطلقة لله رب العالمين؟ وكيف تتخلف فيه إرادة الله الخلاق العليم ليعصى وهو من المخلوقين للطاعة؟ والعبادة والذكر؟

وتلوح الإجابة فى الأفق ويمسك أصبعى بطرفها. فهناك رواية تجيب على الشق الأول من السؤال ولكن بشكل غير شاف ولا كاف. وهى قول شهر بن حوشب رحمه الله: كان إبليس من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحور. وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء. فكان هناك. فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه[2]. ولكن لِمَ إبليس بالذات الذى يؤخذ إلى السماء؟ وكيف يمتنع وهو أسير الملائكة؟ لا. هناك ولابد شيء آخر!!

فلا شك أن كون إبليس من الجن هو الأمر الذى لا غبار عليه ولا لبث فيه لأن الملائكة مخلوقات نورانية طائعة شفافة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومنهم الساجد إلى يوم القيامة والراكع إلى يوم القيامة والقائم بذكر الله إلى يوم القيامة ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٦ – ٢٨] ومن

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) قصص الأنبياء – ابن كثير.

الإستحالة أن تتخلف فيهم أو فى بعضهم قدرة الله وإرادته ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [النحل : ٤٩ – ٥٠] فلا مجال للمعصية إذن .

فمع النظر وتقليب الأمر يتضح أن إبليس لعنه الله من الجن وعلى الأرجح هو أصلهم كما قال الحسن البصرى وكان من أشدهم فسقا وأكثرهم فسادا وعصيانا وكان من السماعين إلى السماء ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا* وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾ [الجن : ٨ – ٩] . فلما علم أن الملائكة أمرت بإهلاك الجن الفسقة وإجلائهم إلى جزائر البحور . نافق محاولاً محاولته الأخيرة اليائسة لكى ينجو من هذا المصير المحتوم . وهداه مكره وخداعه أن يتشبه بالملائكة فى العبادة والسجود والطاعة والذكر فلم يترك بقعة على الأرض موضع أربع أصابع إلا وسجد عليها سجدة لله تعالى . وجعل يجتهد فى ذلك اجتهادا كبيرا . فلما نزل الملائكة وأدوا مهمتهم . احتاروا فى أمر ذلك العابد . الذى هو أساس القائمة المطلوب إهلاكها . فأخذوه معهم ليرى فيه العليم الخبير أمره . كما يقال أن الملَك يقول لصاحبه : اكتب تصفير وعلى الله التفسير . فأخذوه معهم إلى السماء . وهنا تركه العليم الخبير ولم يفضح أمره وإنما تركه فى وسط الملائكة حتى ارتفع شأنه كما سبق . وظن أن خدعته قد انطلت حتى على رب العالمين . ولعله تذكر مكره الأول وتصور على الله الغفلة والنسيان والخطأ وأن حيلته وخدعته قد انطلت عليه سبحانه . ومن هنا اعترض ثانيا على أمر السجود متهما رب العالمين بالخطأ فى أمره بالسجود لهذه الكتلة الطينية المتحركة ولهذا المخلوق المهين كما أخطأ من قبل فى قبوله مع الملائكة . لعنة الله عليه فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين . وهذا ما ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ [النساء : ١٤٢] .

يا أيها المتحلى غير شيمته ومن شمائله التبديل والملق
ارجع إلى خلقك المعروف ديدنه إن التخلق يأتى دونه الخلق

فتركه تعالى يرتفع ليأخذه أخذته الشديدة الرابية . ثم خلق آدم أمامه من طين لازب ثم أمره بالسجود له فكان الكبرياء والامتناع وافتضاح الأمر واتضاح الحق ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا**

﴿ دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٠ – ٥٢].

يقول الأستاذ أحمد بهجت: خلق الله تعالى مع الملائكة خلقًا آخر يسميه الجن. والجن مخلوقات مستترة وليست أجسادًا ظاهرة لنراها. وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين الجن والملائكة. فقد خلق الله الجن من النار وخلق الملائكة من النور. والملائكة بحكم تكوينهم الخير المحض أو الخير المطلق. أما الجن فمخلوقات تخضع للتكليف ومنهم الطيب والخبيث. ومن أشهرهم إبليس الذى كان يقف مع الملائكة حين صدر إليهم أمر السجود لآدم فلما رفض وأبى صار رمزاً للشر فى الكون. والصحيح أنه من الجن ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠]. ما الذى كان يفعله هناك مع الملائكة؟ ما الذى عمله حتى استحق أن ينال شرف الوقوف مع الملائكة؟ هذا كله غيب.

يقول العلماء: أنه عبد الله آلاف السنين ليترقى ولكنه كان سيداً من سادة الكبرياء والانتهازية والشر قبل خلق الإنسان. لقد عبد الله حبًا فى المجد والرياسة لا حبًا فى الله. كان رمزاً لروح الشر. وكانت العبادة هى طريق السمو والارتقاء فسلك هذا الطريق. فلما صدر الأمر بالسجود إلى الملائكة لزمه الأمر بوصفه أقل منهم ساعتئذ! انحسرت دوافعه للعبادة عن وجه الكبرياء. ورأى أهدافه فى المجد تهدر. وألفى نفسه مأموراً بالسجود لآدم وهو مخلوق من طين فاستكبر ورفض. وبذلك اختار إبليس يومها – والله يعلم أنه سيختار – أن يكون رمزاً للشر على الأرض ومن يومها خسر نفسه وكسب الشهرة. ووقفت روحه تساند كل الشرور والمظالم والآثام فى الأرض.. وعلى كل حال فإن هذا المخلوق هو الدرجة الأخيرة فى اللون الأسود من الشر[1].

● **الشيطان يرفض السجود:**

يقول ابن القيم رحمه الله: كاد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين. ثم كاد ذرية نفسه وذرية آدم فكان مشئومًا على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس. أما كيده لنفسه.

---

(١) أنبياء الله – أحمد بهجت.

فإن الله عز وجل لما أمره بالسجود لآدم كان فى امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزه ونجاته. فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن فى سجوده لآدم غضاضة عليه وهضمًا لحقه. إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خلق من طين. وهو مخلوق من نار. والنار بزعمه أشرف من الطين. فالمخلوق منها أفضل من المخلوق منه. وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلته، فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه قد خصه من أنواع الكرامة والتكريم. فإنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأدخله الجنة. فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ. لا سيما وقد خلقه عليه السلام فى أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها. وكُمِّلت محاسنه الباطنة بالعلم والحلم والوقار. والظاهرة حتى وصل طوله فى السماء ستون ذراعًا. وقد ألبس رداء الجمال والحسن والبهاء والمهابة. فرأت الملائكة منظرًا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل فوقعوا كلهم سجوداً له بأمر ربهم. فشق الحسود القميص من دبر واشتعلت فى قلبه نيران الحسد المبين فأبى أن يسجد مع الساجدين. ثم أردف ذلك بالإعتراض على العليم الحكيم الذى لا تجد العقول للإعتراض على حكمته سبيلا. فقال: «أرأيتك هذا الذى كرمت على؟ لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا» وتحت هذا الكلام معنى: أخبرنى لما كرمته علىّ؟ وغور هذا الإعتراض: أن الذى أمرتَ به ليس بحكمة ولا صواب. وأن الحكمة كانت تقتضى أن يسجد هو لى. لأن المفضول يخضع للفاضل. فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وإزرائه به فقال: «أنا خير منه» ثم قرر ذلك بحجته الداحضة فى تفضيل مادته وأصله على مادة آدم وأصله. فانتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية. فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها. ووضعها من حيث أراد رفعتها. وأذلها من حيث أراد عزتها وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها. ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه فى مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويواليه[1].

---

(١) أغاثة اللهفان – ابن القيم.

يا حاسدا لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترضى بما وهب
فأخذاك الله بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

وكقول الآخرة:

إنى نشأت وحاسدى ذووا عددٍ ... ياذا المعارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدونى على ما بى لما بهم ... فمثل ما بى مما يجلب الحسدا

وكقوله الآخر:

اصبر على حسد الحسود ... فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «ما رأيت جبريل عليه السلام إلا وهو صار» بين عينيه - أى مقضب خائف - فسألته عن ذلك فقال: ما ضحكت منذ خلقت النار. ثم سأله عن الرحمة التى أصابته من بعثته؟ فقال: كنت أخشى مغبة العاقبة مثل إبليس. حتى نزل عليك قول الحق تبارك وتعالى فى درجتى وصفتى عنده تعالى ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠ - ٢١] فأمنت.

وروى أن إبليس قال يارب أخرجتنى من الجنة لأجل آدم. وأنا لا أقدر عليه إلا بتسليطك. قال: أنت مسلط عليه وعلى أولاده. قال: زدنى. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: زدنى. قال: صدورهم مساكن لك تجرى منها مجرى الدم. قال: زدنى. قال: أجلب عليهم بخيلك ورجلك.. أى استعن عليهم بأعوانك من راكبٍ وماشٍ وشاركهم فى الأموال. أى بحملهم على كسبها وصرفها فى الحرام. والأولاد وعدهم.. أى المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة الباطلة وتأخير التوبة بطول الأمل.

وسُئل الشعبى: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده. ثم قرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي ﴾ قال فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة. فقال: نعم.

وقال آدم: يارب قد سلطته علىّ فلا أمتنع عليه إلا بك. قال: وكلت لك الحفظة

من الملائكة. قال: زدنى. قال: الحسنة بعشر أمثالها. قال: زدنى. قال: لا أنزع منهم التوبة ما دامت أرواحهم فى أبدانهم وهكذا وضع إبليس الرجيم نفسه فى موقف المعادى والمتحدى لله عز وجل فى شأن هذا المخلوق.

كما أنه أقحم آدم فى تلك العداوة. رغم براءته الكاملة. فالموقف كله بين رب العالمين وبين إبليس. ولا شأن لآدم فيه من قريب ولا من بعيد. فالله تعالى هو الذى خلق آدم وهو الذى كرمه وأمر الملائكة بالسجود له. وإبليس هو الذى تأبى وامتنع من السجود. وتكبر على آدم. ولا دخل لآدم فى كل ذلك! فما السبب فى قول إبليس اللعين.. يارب قد أخرجتنى من الجنة لأجل آدم. ولا شك أنه الظلم والبهتان. ولذلك وقف الحق تبارك وتعالى بجانب المظلوم وفتح له باب التوبة والنجاة بابا من بعد باب.

● **اسكن أنت وزوجك الجنة:**

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥]. كما قال له: ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾ [طه: ١١٦ – ١١٩].

وسياق هذه الآيات أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة. ولكن حكى عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة أنهم قالوا: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة. فكان يمشى فيها. وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ. وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه. فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولما خلقت؟ قالت: لتسكن إلىّ. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولما كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حى. وذكر أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولئم مكانه لحما. وقال: آخرون أنها خلقت من نفسه. وأن كل نفس زوج خلقت من نفس زوجها ليسكن إليها. ويتم التلاحم والتجاذب بينهما فى كل أمور الحياة.

ولهذا يقول الشيخ الشعراوى رحمة الله عليه: يثور الخلاف بين الناس لعدم فهم طبيعة الخلق من الله سبحانه وتعالى. ذلك لأن الناس تحسب أن الرجل والمرأة

متنافسين ومتعاندين. ولكنهما فى الحقيقة خلقا متكاملين أى يكمل كل منهما الآخر ولا يستغنى عنه قط. واقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ** ﴾ [الليل: ١ - ٤] فقد أراد الله تعالى أن يلفتنا إلى قضية التكامل بين الرجل والمرأة. كقضية التكامل بين الليل والنهار. فهما مختلفان فى الطبيعة ولكنهما متكاملان فى المهمة. فالنهار يملؤه الضوء وهو وقت السعى وراء الرزق والحركة. والليل تملؤه الظلمة وهو وقت السكون والراحة والنوم.. كلاهما أى الليل والنهار يختلفان فى طبيعة مهمتهما فى الكون ولكنهما مع ذلك متساويان ومتكاملان فى آداء هذه المهمة أى يكمل كل منهما الآخر.

فلو أن الله تعالى جعل الزمن كله نهاراً لتعب الناس. لأنهم لا يجدون وقتا تسكن فيه حركة الكون ويستطيعون الراحة فيه. ولو خلق الزمن كله ليلاً ما استطاع الناس الحركة ولا العمل ولا السعى على الرزق. ولهذا يقول الحق تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢]. فهى مهمة متكاملة وليست متعاندة وهذا واضح من حركة الحياة.

أيضا الرجل والمرأة خلقهما الله تعالى متكاملين وليسا متعاندين وأيضا متساويين وليسا متماثلين.. الرجل له مهمة ووظيفة تتفق مع صلابة عوده وخشونة خلقه من السعى على الرزق ورعاية زوجه وأولاده وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم.. والمرأة لها مهمة ووظيفة فى الحياة. تتفق بدورها مع رقتها وأنوثتها وكرامتها من رعاية البيت وإنجاب الأولاد وتكون مسكنا للزوج عندما يعود إلى بيته متعبا من حركة الحياة. وهكذا حدد الله تعالى المهمة المتكاملة للرجل والمرأة. فكلاهما يكمل بعضه بعضاً.. لا الرجل يصلح لمهمة المرأة فى انجاب الأطفال وتربيتهم والعناية بهم ورعاية البيت. ولا المرأة مهمتها الأساسية أن تسعى فى سبيل الرزق لتوفر لقمة العيش للرجل.. وليس هذا على مستوى الأمة الإسلامية ولكنه القانون العام والسائد الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على مستوى الكون كله.

ولا يوجد رجل يبقى فى البيت وامرأته تعوله وهو قادر على الكسب إلا نال احتقار الناس بما فيهم زوجته.. ولا توجد امرأة إلا تتمنى أن تعيش فى كنف وحماية رجل يوفر لها كل شىء ويرعاها كل الرعاية وتلك هى سنة الله فى خلقه بصرف النظر عن الإيمان وعدم الإيمان. لأنها طبيعة الخلق. فالمرأة تكرَّم وتصان والرجل يكد ويتعب ويرعاها.. فبالله عليك من الذى يكرم المرأة ومن الذى يطالبها بأعباء لا تتحملها عاطفتها وأنوثتها. وفى النهاية: فالمرأة إما أخت الرجل أو أمه أو زوجه أو ابنته. وهو إما والدها أو زوجها أو أخوها أو ابنها فلم كل هذه الفتن والصراعات[1].

وبعد أن تمت عملية الخلق يأمرهما تعالى ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ قيل الكرم وتزعم يهود أنها الحنطة. قال وهب: والحبة منها ألين من الزبد وأحلى من العسل. وقيل النخلة أو التينه.. وكانت شجرة من أكل منها أحدث. ولا ينبغى فى الجنة حدث فليس فيها أماكن للحدث والقذارة ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾ [البقرة: ٣٦] أى عن الجنة ﴿ **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ أى من النعيم والنضرة والسرور. إلى دار التعب والكد والنكد. وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما. كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢١] وفى موضع آخر ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٠]. أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم وبقيت فى ملك لا يُنتقص ولا يبيد؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع. كما قال تعالى: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٣].

يقول صاحب الظلال ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾ تعبير يرسم صورة الحركة التى يعبر عنها. إنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل

---

(١) أنظر المرأة فى القرآن الكريم - الشعراوى.

وتهوى. وعندئذ تمت التجربة. ونسي آدم عهده وضعف أمام الغواية. وعندئذ حقت كلمة الله ووضح قضاؤه ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ وكان هذا إيذان بإنطلاق المعركة فى مجالها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان.

ونهض آدم من عثرته بما ركب فى فطرته. وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ وتمت كلمة الله الأخيرة وعهده الدائم مع آدم وذريته. عهد الإستخلاف فى هذه الأرض وشرط الفلاح فيها أو البوار. وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل. وانطلقت من عقالها لا تهدأ لحظة وما تفتر. وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الإنتصار وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار[1].

وفى الحديث: إن أباكم آدم كان فى الجنة. فلما بدت له سوأته خرج من الجنة فلقيته شجرة فأخذت بناصيته. فناداه ربه: أفرارا منى يا آدم؟ قال: بل حياء منك يارب مما جئت به[2].

● **مدخل الشيطان للنفس:**

وقد لخص الله تعالى فى بلاغة رائعة مدخل الشيطان إلى النفس البشرية. حيث أورد لنا كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله. حيث تم الإغراء بجملة واحدة حين قال له ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا.. حياة خالدة لا تنتهى ومالا وفيرا لا يفنى ولا يتأثر بكل ما ينفق الإنسان. مع عدم تأثر عمره بمرور السنوات.. فهو يريد شبابا دائما، وكنوزاً لا تعد ولا تحصى. ومن هنا كان مدخل الشيطان إلى النفس البشرية. فكل الآلهة الباطلة التى عبدها الإنسان على مر العصور واختلاف الأمكنة. كانت إما وهما دافع لأذى أو مرض يؤدى إلى الهلاك. أو وهما جالب للرزق والجاه فى الدنيا. وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبدا. بل إن عبادة الناس للبشر تأتى أيضا من خلال هذين المدخلين.

---

(١) الظلال.

(٢) قصص الأنبياء – ابن كثير.

فهو إما يرجو رزقا يستمتع به أو صحة أو قدرة تطييل فى عمره وبذلك يتضح لنا مدخلين أساسيين من مداخل الشيطان إلى النفس البشرية لإغوائها عن منهج الله[1].

ولهذا بذل الإسلام جهده فى تهذيب هذه الغرائز وتعليتها وليس اقتلاعها فهذب فى النفس حب الدنيا. ولفتها إلى نهايتها المحتومة وحقيقتها الواضحة فيقول الرسول ﷺ للصحابة قبل كل صلاة: صلوا صلاة مودع. أى اجعلوا من صلاتكم تلك آخر صلاة تقفون فيها بين يدى مولاكم. وكان ملك الموت يقف خلف أحدكم ينتظر انتهاءه من الصلاة ليقبض روحه. وهى كلمة نموذج يجب أن نحتذيها فى كل حياتنا. فإذا دخلت بيتك فادخل دخول مودع. وإذا خرجت من بيتك فاخرج خروج مودع. وإذا ذهبت إلى سريرك لتنام فنم نوم مودع. وإذا استيقظت من نومك فاستيقظ استيقاظ مودع. لأنه من يضمن لك. أن إذا دخلت بيتك أن تخرج منه؟ فكثير من الناس دخلوا بيوتهم وهم فى كامل الصحة والعافية ولم يخرجوا منها إلا إلى القبور. وإذا خرجت من بيتك من يضمن لك أن تعود إليه؟ فكثير من الناس خرجوا من بيوتهم وهم فى كامل الصحة والعافية ثم سقطوا فى طرقهم بمرض من الأمراض أو بحادث من الحوادث. ثم نقلوا إلى المستشفيات ومنها إلى القبور. دون أن يمروا على بيوتهم. وكذلك إذا ذهبت إلى سريرك لتنام من يضمن لك أن تستيقظ من نومك؟ وإذا استيقظت من نومك فمن يضمن لك أن تعود إلى فراشك؟

ولذلك يعلمنا الصادق المصدوق: أن إذا أردنا النوم فعلى أى هيئة ننام وعلى أى ذكرى ننام. هل ننام على ذكر الأطيان والعقارات أم الأموال والإستثمارات؟ لا. ولكن يعلمنا إذا أردنا النوم أن نتوضأ وضوءنا للصلاة ثم ننام على شقنا الأيمن. ونضع كفنا اليمنى تحت خدنا الأيمن ثم نقول: باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت روحى – أى بالموت – فأغفر لها. وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وفى ذكر آخر: ألهم إنك خلقت نفسى وأنت تتوفاها. لك مماتها ولك محياها. فإن إمتها فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. فإذا ما استيقظت يعلمك خير من خلق الخلاق محمد ﷺ أن تقول: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

---

(١) معجزة القرآن – الشعراوى.

فتنام على ذكر الموت وتستيقظ على ذكر الموت. وتخرج من بيتك على ذكر الموت وتعود إليه على ذكر الموت، وكذلك فى كل أحوالك وأعمالك حتى تكون تقيا ومستعداً للقاء الله دائما.

ولهذا يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تولى الخلافة كان دائما ما يقول:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولدُ
لم تغنى عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلدُ قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها تردُ
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفدُ
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوما كما وردوا

نعم فأين الملوك؟ وأين الرؤساء؟ وأين الزعماء؟ وأين القادة؟ وأين المشاهير؟ وأين الأغنياء؟ وأين. وأين؟ الكل إلى فناء.

يا ويح الدنيا ما تصنع ... أكل حى فوقها تصرع
تزرعهم حتى إذا استووا ... عادت إليهم تحصد ما تزرع

ومن قديم كان قس بن ساعدة يذهب إلى سوق عكاظ وهو أكبر أسواق مكة. وينظر إلى الناس وهم يتلاهون فى البيع والشراء، ثم يخطب فيهم قائلا: أيها الناس اسمعوا واعوا وإذا وعيتم فانتفعوا إن من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن فى السماء لخبراً. وإن فى الأرض لعبراً. مهاد موضع وسقف مرفوع نجوم تمور. وبحارٌ لن تغور. ليل داج وسماء ذات أبراج. يُقسم قس، إن لله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه. ما لى أرى الناس يذهبون - أى إلى المقابر - ثم لا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ ثم ينشد قائلا:

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يسعى الأكابر والأصاغر
أيقنت أنى لا محالة ... حيث صار القوم صائر

«فهذه الدنيا خطرها يسير وأمرها حقير، وإنما هى لحظة واحدة يضرب فيها الموت ضربته فإذا ما للسماء للسماء، وما للأرض للأرض. ويا موت ما أنت وما تكون؟ ويا حياة ما أنت وما تكونين؟.. ويا موت ما أنت ويا أيها الجسد المسجى ما الذى سجاه؟ ويا ذا الجسد الصامت الساكن من أصمته وأسكنه؟ هذا الجسد الساكن لم لا يتحرك؟ الآن تأمل فيه مليًا وأقبل عليه طويلا وتأمل في حاله. لقد كان منذ قليل مقبلاً مدبرا، ومحبًا مبغضا، لقد كان غاضبًا وحالما وناطقاً وصامتا. فليت شعرى ما دهاه ما الذى خرج منه ولم يعود إليه».

ويروى أن أعرابيًا كان يسير على جمل له فى الصحراء، فخر الجمل ميتًا. فنزل الأعرابى عنه. وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول له: ما لك لا تقوم؟ ما لك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة وجوارحك سالمة. ما شأنك؟ ما الذى كان يحملك؟ ما الذى كان يبعثك؟ ما الذى صرعك؟ ما الذى عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكراً فى شأنه متعجبًا من أمره. فهى لحظة جديرة بالتأمل والتفكير الطويل، ولهذا وقف الحسن أثناء تشييع جنازة وجيهًا من الوجهاء. أو عظيمًا من العظماء. فلما رآه قد وضع فى قبره، ثم ردم عليه بالتراب أو أغلق عليه الباب. نظر إليه طويلاً ثم قال كلمة يجب أن تُحفظ وتُدرك جيداً حيث قال: إن شيئًا هذا آخره لحقيق بأن يزهد فى أوله - وهى الدنيا - وإن شيئًا هذا أوله - أى الآخرة - لحقيق بأن يخاف من آخره.

ياراقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرُقن أسحارا
أفنى القرون التى كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان فى الدهر نفاعًا وضرارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يُمسى ويُصبح فى دنياه صفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها ... فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وإن الإنسان ليتعجب كل العجب كيف ينسى الإنسان الموت وكيف ينسى الإنسان القبر؟ وهو الحقيقة الواضحة الجلية كالشمس فى ضحاها وكالقمر إذا تلاها وكالنهار إذا جلاها. فكم من عظيم هلك ومن قوى أفل ومن حبيب غاب. ولكنى

أتذكر قول العلماء: أن ذلك ليتم العمران فلو لم ينسى الإنسان الموت. وتذكره على الدوام وعاش لحظته دائما. لما وجد دافعًا يدفعه للبناء. ولم يجد حافزاً له نحو التحضر والإرتقاء وبهذا يتراجع عن الركب.

ولكنى أجد هناك معنى أعمق من ذلك بكثير وأنا واقف هناك بين المقابر والأجسام البالية والعظام النخرة.. ألا وهو أننا لو عشنا تلك اللحظة بعمقها وحقيقتها لهانت علينا الدنيا. ولصارت هينة رخيصة علينا جميعًا. وفى تلك اللحظة تفقد قيمتها فى الميزان. لأن الذى سيبيعها ويتخلى عنها يشترى الجنة. وهنا تصبح الجنة لا قيمة لها لأن ثمنها زهيد رخيص.. أما إذا نسينا حقيقتها واحتفظت الدنيا بقيمتها فإن من يتخلى عنها فى هذه الحالة. فقد تخلى عن عظيم. تخلى عن غال ونفيس. فيستحق عند ذلك الجنة الغالية «ألا إن سلعة الله غالية. ألا إن سلعة الله الجنة».

وإنى لأتساءل أحيانًا هل من الممكن أن يطلب منا النبى الكريم ﷺ مع ما يحمله من خلق وفضل اعترف به الجميع. وكل إخوانه الأنبياء.. هل من الممكن أن يطلب منا وأن يطلبوا منا أن نتخلى ونزهد ونترك ما فى إيدينا من متاع الدنيا وأن نستعمله فى الخير. بغير مقابل؟ وما الذى يعود على كرام أمثالهم من وراء ذلك؟ ولا شك أن الإجابة مستحيل. فهو وهم عليهم السلام يطلبون منا ذلك حتى نتحصل على ما هو أفضل من ذلك بكثير فى معيته ومعيتهم عند رب العالمين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فكل ما فات فليس بضائر

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رِفٍ من جناح لطائر

فلم يرضى بالدنيا ثوابا لمؤمن ... ولم يرضى بالدنيا عقابا لكافر

● **حقارة الدنيا. والموت:**

فيكفينا من الدنيا أن آدم عليه السلام نزل إليها عقوبة. أى لما عصى ربه وأكل من الشجرة كان عقابه أن ينزل إلى الدنيا. وأن الشيطان طلبها من بدايتها إلى نهايتها وأعطاها الله له ولم يستكثرها عليه وذلك لأنها لا تساوى عنده تعالى جناح بعوضة

فلو كانت تستحق عنده جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء. وذلك حيث قال الشيطان ﴿ **فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ** ﴾ ولا شك أن الدنيا دار هى قريبة العرس من المأتم ولهذا يقول الأمام الشافعى رحمه الله:

فلا حزنٌ يدوم ولا سرورٌ ولا بأسٌ عليك ولا رخاءُ

إذا كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ فأنت ومالك الدنيا سواءُ

ويقول رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم مالى مالى وليس له من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى أو تصدق فأبقى.. قالوا وما سوى ذلك يا رسول الله – أى العقارات والأموال والإستثمارات – قال: وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[1] فالإنسان ليس له من ماله إلا ما انتفع به أما غير ذلك فهو كمجرد الحارس الأمين عليه الذى لا يستطيع أن ينفق منه شيئا وربما بخل وقتر على نفسه حتى يقول القائل: «خايف من الفقر وعايش فيه» وذلك حتى يحفظه كاملا لورثته.

وذو حرص تراه يلم وفرا لوارثه ويدفع عن حماه

ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ فريسته ليأكلها سواه

ولهذا كان ابن عباس رضى الله عنهما إذا رأى درهما فى يد رجل يقول له: ليس درهمك حتى يخرج من يدك.. وكان سيدنا داود عليه السلام يستعيذ بالله من أربع أشياء: اللهم إنى أعوذ بك من ولد يكون على سيدا. وأعوذ بك من مال يكون عذابه فى قبرى ومنفعته لغيرى وأعوذ بك من جار سوء إذا رأى علىّ حسنة أخفاها وإذا رأى علىّ سيئة أذاعها وأفشاها وأعوذ بك من امرأة تشيبنى قبل المشيب.

ويقول الرسول ﷺ: يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد. يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله.. ويبقى عمله[2].

إذا المرأ لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه

ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه

إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الشيخان.

وقال عيسى عليه السلام:

من ذا الذى يبنى على صهوة الأمواج دارا

تلكمُ الدنيا فلا تجعلوها قرارا

وهذا ملك من الملوك يمرض مرضًا شديداً ويشعر بدنو أجله وبأن الموت قد اقترب منه. فأمرهم أن يكتبوا على شاهد قبره إبياتا يعتبر بها الناس ولا يغتروا بالدنيا ومتاعها الذائل.. وهى:

سلامٌ على أهل القبور الدوارس ... كأنهم لم يجلسوا فى المجالسِ

ولم يشربوا من بارد الماء شربةً ... ولم يأكلوا من بين رطبٍ ويابسِ

فقد جاءنى الموتُ المهول بكسرةٍ ... فلم يُغن عنى آلف آلف فارسِ

فيا زائر القبر اتعظ واعتبر بنا ... ولا تكن فى دنيا الغرورِ بآنسِ

● **الزهد فى الدنيا:**

ولكل ذلك وجدنا أناساً تربوا على الزهد فى الدنيا. وابتغاء وجه الله. مثل عمرو ابن عبيد الذى وصفه ابن السماك بقوله: كان عمرو بن عبيد إذا رأيته مقبلاً توهمته قد جاء من دفن والديه. وإذا رأيته متكلمًا توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا إلا له. وكان صديقًا لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى قبل أن يلى الخلافة. فلما وليها طلب إليه أن يُعينه بأصحابه. فقال له عمرو: إرفع لواء الحق يتبعك أهله. وكان المنصور ينظر إليه وهو خارج من عنده وقد عرض عليه الدنيا فرفضها، فيقول:

كلكم يمشى رويد ... كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

فهم لا يطلبون الدنيا ولا يلهثون وراءها ولا يريدونها بعلمهم. وهم مع ذلك يدعون الناس إلى العلم والعمل والرقى والإتقان لرفع شأن أمة الإسلام فى العالمين. لأن الإسلام جاء ليبنى حضارة ترى فيها البشرية عظمته محققة. هذا رغم الأمانة والزهد الكامل فيها.

فقد أرسل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عُمير بن سعد واليًا على حمص فذهب إليها. ومكث بها عامًا كاملا لم يرسل خلاله لأمير المؤمنين بأية أموال أو أخبار

فأرسل إليه يستدعيه ليعرف أخباره ويطمئن على أحوال رعيته. فأقبل عمير على الخليفة، وهو أشعث أغبر تظهر عليه وعثاء السفر. ويحمل على كتفه اليمنى جراب وقصعة. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء. وفى يده عصاً يتوكأ عليها. فلما دخل على الخليفة ألقى عليه السلام. فرد عليه. ثم سأله عن شأنه. فقال شأنى ما ترى.. ألست ترانى صحيح البدن طاهر الدم معى الدنيا أجرها بقرنها! فقال عمر: وما معك من الدنيا؟ قال عمير: معى جرابى أحمل فيه زادى وقصعتى آكل فيها. وإداوتى أحمل فيها وضوئى وشرابى وعصاى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض لى.. فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى.

فقال له: أجئت ماشيا؟ قال نعم! قال: أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها؟ قال: إنهم لم يفعلوا وإنى لم أسألهم.. ثم سأله عن أحواله وأحوال رعيته. وفى النهاية أراد أن يُجدد له عهده فى ولايته. إلا أن عمير رفض وتنازل عن الولاية. وقال: يا أمير المؤمنين تلك أيام قد خلت. لا عملت لك ولا لأحد بعدك.

والكلام فى الزهد يطول ولا ينتهى. رغم الجهاد الطويل فى بناء حضارة نالت انبهار كل المنصفين على مر العصور حتى الآن. فالدنيا فى اليد، والدين فى القلب حتى يأتينا اليقين بإذن الله رب العالمين.

● **توبة الله على آدم:**

عن ابن عباس قال: قال آدم: يارب.. ألم تخلقنى بيدك؟ قيل له: بلى. ونفخت فىَّ من روحك؟ قيل له: بلى. وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى. وكتبت علىّ أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى. قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة؟ قال: نعم[1].

وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: لما اقترف آدم الخطيئة. قال يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى. فقال الله تعالى: فكيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟ فقال: يارب لأنك لما خلقتنى ونفخت فىّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا. لا إله إلا الله. محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ. وإذ سألتنى بحقه

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح.

فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك»[1]. وقد طعن علماء الحديث فى صحته لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فكيف يقول لآدم عليه السلام: ولولا محمد ما خلقتك.. والواقع أنه بالنظر الدقيق للآية والحديث يتضح أنه لا تعارض بينهما. إذا أن الآية قررت أن غاية الخلق وهدف الإيجاد هو العبادة. ولكن من الذى حقق تلك العبادة بصورتها الكاملة ودرجتها المثلى حتى اجتمع فيه بنيان النبوة وهَدى المرسلين حتى قال الشيخ جاد الحق رحمه الله: «ذلك أن نفس ذلك الوليد. قد حملت فى مجموعها جماع ما حملت به الأنفس الإنسانية من جمال وكمال. ولو أن فضائل أهل التقوى والعلم والحكمة والحلم من لدن آدم إلى يوم القيامة لو اجتمعت وجعلت فى إنسان واحد ما بلغت مثل نفسه ﷺ. ذلك أن نفسه الذكية بخلق الله. قد اكتملت وتفردت حتى صارت هى النفس الإنسانية الكبرى وكما قيل: كان فى آدم سر وجود الإنسانية وكان فى محمد ﷺ سر كمالها[2].

وذلك حتى أصبح ﷺ رمزًا للعباد جميعًا ومندوبهم ونائبهم فى حضرة رب العالمين. فى ليلة الإسراء والمعراج عندما إلتقت البشرية بالألوهية لأول مرة فى التاريخ.. الألوهية ممثلة فى الإله المعبود بحق سبحانه.. والعبودية ممثلة فى رمز العباد الذى حقق العبادة والعبودية له سبحانه بكل حب وعمق حتى جمع فضل الجميع لينوب عنهم، ويصبح هو ممثلهم. ورمز الخيرية فى جميع بنى آدم. ليقف الشيطان الرجيم أمام هذا الصرح من بنى آدم مبهوتًا مرجومًا صاغرًا مدحورًا.. لا لشىء إلا أنه يحقق إرادة رب العالمين وقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لآدم عليه السلام: ولولاه ما خلقتك فلا تعارض مع أن غاية الخلق هى العبادة.

وقال ﷺ: حاج موسى آدم عليهما السلام: فقال له: أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه. ثم أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم.. قال آدم: ياموسى أنت الذى أصطفاك الله برسالاته وبكلامه. أتلومنى على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»[3].

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى وضعفه.

(٢) وهى نقلا عن الرافعى والعقاد رحمهما الله.

(٣) رواه أحمد والبخارى.

وقد روى هذا الحديث بروايات متعددة مدارها فى الصحيحين وغيرهما: على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة. فقال له آدم: أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكلى من الشجرة. والذى رتب ذلك وقدره قبل أن أخلق هو الله رب العالمين. فأنت تلومنى على شىء ليس له نسبة إلىّ أكثر من أنى نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها. وكون الإخراج مترتبًا على ذلك ليس من فعلى. فأنا لم أخرجكم ولا نفسى. وإنما كان هذا من قدر الله تعالى وله الحكمة فى ذلك. فلهذا حج آدم موسى ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾[1] [طه: ٨٢].

● **لماذا غفر الله لآدم:**

وهنا يتبادرُ إلى الأذهان سؤال.. لماذا غفر الله لآدم وتجاوز عنه ولم يغفر لأبليس؟

والواقع أن الإجابة واضحة جليه. من وضوح الفرق بين الذنبين. لأن إبليس فعل الذنب دون أن يسول أو يغرر به أحد. فذنبه نابع من ذاته متدفق من نفسه. التى غلبت عليها شقوتها وصبغها نفاقها وكبرها وحسدها. فلم يغرر به أحد ولم يزين له أحد. وإنما هى طبيعته وحقيقته التى أبت فى هذا الموقف إلا أن تبوح وتفصح عن نفسها. أما آدم عليه السلام ففعل ما فعل ليس من ذاته مثل إبليس وإنما فعله نتيجة لتغرير وتزييف حتى أقسم له الشيطان بالله على صواب ما دعاه إليه. وعلينا أن نعلم أن قبول آدم ونسيانه كان من قدر الله لحكمة يعلمها.

وما سمى الإنسان إلا لنسيه

ولا القلب إلا أنه يتقلب

كما أن إبليس أعقب معصيته بالكبرياء والتمادى وإعلان العداوة والتحدى ليس لآدم فحسب وإنما لله رب العالين، بصورة سافرة. توضح وتبوح عن مخزون نفسه الفاجرة الكافرة المنافقة فى أدكن درجات هذه الصفات ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن**

(١) وانظر قصص الأنبياء – ابن كثير.

كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: ٣٣ - ٣٤].

أما آدم عليه السلام فأعقب معصيته بالحياء والخوف والندم الذى تملك عليه مشاعره وقلبه ووجدانه حتى راح يتطلع إلى التوبة والرجوع. وجعل يقلب وجهه فى السماء مستجيراً بصفات الجمال واحدة تلو الأخرى.. فيقول: يا تواب ياغفور يارحمن يارحيم ياعفو ياقدير ياغنى ياكريم حتى نالته رحمة الله بل وعلمته كيف يتوب.. ليتوب الله عليه وهو خير التوابين. وهو خير الراحمين.

قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية ولا يحط عن رتبة الولاية. فمخالفة آدم التى أوجبت له الإخراج من دار الكرامة. لم تخرجه من حظيرة القدس. ولم تسلبه رتبة الخلافة. بل أجزل الله له فى العطية وعمه بعظيم المغفرة.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وهى صفات التواضع والإنابة والذل والمسكنة، التى تجلت واضحة فى أخلاق وصفات سيد بنى آدم عليه السلام ورمزهم فى عبادة رب الأنام ﷺ.

● **الخطيئة والتوبة:**

وأخيرا تجىء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة.. إن الخطيئة فردية والتوبة فردية فى تصور بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض. ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة - وليس هنالك تكفير لاهوتى. كما تقول به الكنيسة.. أن عيسى عليه السلام - الله أو ابن الله بزعمهم - قام بصلبه تخليصا لبنى آدم من خطيئة آدم. كلا. خطيئة آدم كانت خطيئة شخصية. وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة فى يسر وبساطة. وهو تصور مريح صريح. يحمل كل إنسان وزره. ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

حكى أن رجلا فى زمن موسى عليه السلام كان لا يستقيم على التوبة. فكلما تاب أفسد. فمكث على ذلك عشرون سنة. فأوحى الله إلى موسى عليه السلام:

---

(١) الظلال.

أن أبلغ عبدى فلان أنى قد غضبت عليه. فلما أخبره موسى عليه السلام جزع جزعا شديدا. وخرج إلى الصحراء وجعل يبكى ويقول: إلهى أنفذت رحمتك. أم ضرتك معصيتى. أم بخلت على عبادك. أم ذنبى أعظم من عفوك؟ والكرم من صفاتك. واللئم من صفاتى. فهل تغلب صفتى صفتك. وإذا حجبت عبادك عن رحمتك فمن يرجون. وإن طردتهم فلمن يقصدون. إلهى إن كانت رحمتك قد نفدت وأبيت إلا عذابى فاحمل علىّ ذنوب جميع عبادك فإنى قد افتديتهم بنفس. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن أبلغه أنى قد غفرت له بعد ما عرفنى بكمال القدرة والعفو والمغفرة. وذلك لأنه دعاه سبحانه بتنزيهه عن المستحيلات فى حقه تعالى الله عنها علواً كبيراً.

إلهى لا تعذبنى فإنى ... مقربا لذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى ... بعفوك إن عفوت وحسن ظن
فكم من ذلة لى فى الخطايا ... وأنت علىّ ذو ستر ومنِ
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا وإنى ... أشر الناس إن لم تعفو عنى

وروى أن رجلا. يؤمر به إلى النار بعد أن تثقل سيئاته وتطيش حسناته. فلما وصل إلى ثلث الطريق التفت. فلما وصل إلى نصف الطريق التفت. فلما وصل إلى ثلثى الطريق إلتفت. فأمر الله الملائكة أن يسألوه.. لماذا التفت ثلاث مرات؟ وهو سبحانه أعلم.. فقال الرجل: لما وصلت إلى ثلث الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ فالتفت رجاء المغفرة والرحمة. فلما وصلت نصف الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ فالتفت.. فلما وصلت ثلثى الطريق ذكرت قولك: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ فازداد رجائى فى عفوك ومغفرتك فالتفت. فغفر الله له[1].

والأحاديث فى باب التوبة لا تحصى فعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن ناساً من

---

(١) الإمام القشيرى سيرته وآثاره – إبراهيم بسيونى.

أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن. لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

فلا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت. فإن باب التوبة والمغفرة واسع ولا يغلق ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ وقال عز من قائل: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٠] قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه. وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. وليس العجب من السيارة طلبوا الماء فوجدوا مثل يوسف. ولكن العجب من عاص طلب المغفرة. فوجد الله عفوا رحيما.

وقد روى الإمام أحمد إحاديث كثيرة تدل على قول الرسول ﷺ: « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم. والذى نفسى محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم »(١).

وقال رسول الله ﷺ: « يؤتى برجل يوم القيامة. فيقول الله عز وجل للملائكة نحو عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها. فيقال له: عملت يوم كذا.. كذا وكذا، وعملت يوم كذا.. كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا.. حتى يظن الهلاك. فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة.. فيقول: يارب إن لى أعمالا لا أراها هنا - يعنى الكبائر - ثم ضحك رسول الله حتى بدت نواجذه »(٢).

يامن يجيب المضطر فى الظلم ... ياكاشف الضر والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت ياحى ياقيوم لم تنم

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم.

أن أبلغ عبدى فلان أنى قد غضبت عليه. فلما أخبره موسى عليه السلام جزع جزعا شديدا. وخرج إلى الصحراء وجعل يبكى ويقول: إلهى أنفذت رحمتك. أم ضرتك معصيتى. أم بخلت على عبادك. أم ذنبى أعظم من عفوك؟ والكرم من صفاتك. واللئم من صفاتى. فهل تغلب صفتى صفتك. وإذا حجبت عبادك عن رحمتك فمن يرجون. وإن طردتهم فلمن يقصدون. إلهى إن كانت رحمتك قد نفدت وأبيت إلا عذابى فاحمل علىّ ذنوب جميع عبادك فإنى قد افتديتهم بنفس. فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام أن أبلغه أنى قد غفرت له بعد ما عرفنى بكمال القدرة والعفو والمغفرة. وذلك لأنه دعاه سبحانه بتنزيهه عن المستحيلات فى حقه تعالى الله عنها علواً كبيراً.

إلهى لا تعذبنى فإنى ... مقربا لذى قد كان منى
ومالى حيلة إلا رجائى ... بعفوك إن عفوت وحسن ظن
فكم من ذلة لى فى الخطايا ... وأنت علىّ ذو ستر ومنِ
إذا فكرت فى ندمى عليها ... عضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيرا وإنى ... أشر الناس إن لم تعفو عنى

وروى أن رجلا. يؤمر به إلى النار بعد أن تثقل سيئاته وتطيش حسناته. فلما وصل إلى ثلث الطريق التفت. فلما وصل إلى نصف الطريق التفت. فلما وصل إلى ثلثى الطريق إلتفت. فأمر الله الملائكة أن يسألوه.. لماذا التفت ثلاث مرات؟ وهو سبحانه أعلم.. فقال الرجل: لما وصلت إلى ثلث الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ فالتفت رجاء المغفرة والرحمة. فلما وصلت نصف الطريق ذكرت قولك: ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ فالتفت.. فلما وصلت ثلثى الطريق ذكرت قولك: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ فازداد رجائى فى عفوك ومغفرتك فالتفت. فغفر الله له[1].

والأحاديث فى باب التوبة لا تحصى فعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن ناساً من

---

(١) الإمام القشيرى سيرته وآثاره - إبراهيم بسيونى.

أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن. لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧١].

فلا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت. فإن باب التوبة والمغفرة والرحمة واسع ولا يغلق ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ وقال عز من قائل: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٠] قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه. وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. وليس العجب من السيارة طلبوا الماء فوجدوا مثل يوسف. ولكن العجب من عاص طلب المغفرة. فوجد الله عفوا رحيما.

وقد روى الإمام أحمد إحاديث كثيرة تدل على قول الرسول ﷺ: « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم. والذى نفسى محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم »(١).

وقال رسول الله ﷺ: « يؤتى برجل يوم القيامة. فيقول الله عز وجل للملائكة نحو عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها. فيقال له: عملت يوم كذا.. كذا وكذا، وعملت يوم كذا.. كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا.. حتى يظن الهلاك. فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة.. فيقول: يارب إن لى أعمالا لا أراها هنا – يعنى الكبائر – ثم ضحك رسول الله حتى بدت نواجذه »(٢).

يامن يجيب المضطر فى الظلم ... ياكاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت ياحى ياقيوم لم تنم

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه مسلم.